

## الحرية في المذهب الوجودي

للاستاذ عبد الفتاح الديدي

— ٢ —

تكلمنا قبل هذا عن الحرية في الوجودية من وجهة النظر التابيزيقية . ونحاول الآن أن نحدد خصائصها على نحو واقعي في الأمر الأخلاقي الوجودي إن صح أن الوجودية أخلاقاً بمعنى الكلمة . والذي يقين لنا من أول الأمر أن المذهب جيمها في فرنسا — وليست الوجودية فحسب — نحاول أن تقدم للناس في هذه الفترة الحديثة نظريات أخلاقية مختلفة بالإضافة إلى ما تقدمه من التفسيرات الفلسفية والفكرية وما يحلو لها أن تذيبه من الأسور والآراء . بل إن الجانب الأخلاقي يطغى على كل ما عداه من الجوانب الأخرى في فلسفات الفرنسيين المحدثين ، ويظهر بشكل واضح بين الأنظار الكثيرة حتى لتحسبه الأوحاد من بينها في الأهمية والخطورة . ولعل الحياة الفرنسية اليوم هي التي الفردى والإحسان الفردى إلا انكسار للرجمة الجامعة والألم الجامع والإحسان الجامع ...

إن علينا نحن القصاصين واجبات وأوزاراً : علينا أن نشرك الناس دائماً في شعور واحد ، وأن نرمي بكل ما نملك من جهد إلى غاية مثالية هي حفز دوافع الخير والكرم في النفوس ، وعطف هذه النفوس بعضها على بعض ، وتوجيهها وجهة سامية تكون قبلة الجميع وملتقى إرادتهم . وعلينا نحن القصاصين بقم وزرمان نشر من شر ومن أقبح سواء صدرنا في ذلك عن إهمال أو قسيتنا به حاجة وأصبنا رزقا . وعلينا يقع أيضاً وزر القمود عن إسداء العون ، وترك الضمان للفشل واليأس ، وازدياد آلام الإنسانية وخبثها ... »

وتلك لعمري فاسفة الشعور التي تزرى بالفلسفة . فلسفة صادقة ساذجة زبينة ، فلسفة الإنسانية الصريحة التي تأتي أن ينخفقها المنطق والحدائق ، ونحيا قريرة في النفوس المؤمنة بالخير ، وألقوب الخائفة بالحب ، والأيدى الممتدة بالإحسان ، والعيون الدامعة والشفاة الباسمة .

أنور لوف

تطلب هذا كله وتفترض من كل مذهب فسكرو أن يتصرف في هذا الاتجاه تبعاً للحاجة الأصلية في نفسية الأمة والدور الروحي في تكوينها الحضاري . أو لعل الصلة القوية التي يحس بها الفرنسيون بين حياتهم المادية وأنظارتهم العقلية ، أو بين وجودهم ومفردتهم ، على حد تعبير الفلاسفة ، هي التي تلج عليهم وتدفعهم دفعا إلى انكار مجموعة من القواعد الرضوية التي تلائم ما في نفوسهم من نزوة وما في قلوبهم من ارتباع .

وبأني الحاجة إلى مثل هذا الاتجاه في مسيرة الأمة الفرنسية من أنها ظلت أمداً طويلاً تمثل الأمة المفكرة وتقوم بدور الشعب الفيلسوف وتتمسك في سبيل ذلك كله غير قليل من الجساء والبطوة العمليين في الحياة : فكما أن الأدب الذي يشغل نفسه بمسائل الفن وعمل عقله بالتأملات الروحية بعيد كل البعد عن نطاق الواقع المحدود وآفاق العمل اليومي ، بقيت فرنسا — وهي دولة الفكر الأولى — غارقة في التخيل والنظر العقلي ، زاهدة في الأفعال الواقعية المنتجة ، مدفونة بين صحائف الشعر وسكرات الليل وظلمات القبور . وجاءت الهزومات متتالية في الميدان السياسي ، وتدخلت الظروف على أسوء نحو في المعيشة الفرنسية فجعلتها ضرباً من المأساة التي يعاني صاحبها أكثر مما يعاني المهتم بين أشواك الورد . وتطلع الناس من جراء هذه الخيبة المتكررة في حياتهم إلى نوع من الخلاص كما يقول المسيحيون أو نوع من النجاة كما يقول الملون . وتبين هذا الموز في محاولاتهم المتكررة لإيجاد ناموس أخلاق يعين على رفع الظلمة ويساعد في كشف التهمة ، وظهر عملهم واضحاً في جملة التأليف الفكرية التي اتخذت موقفاً وضيقاً قبل كل شيء .

ونحن المصريين محتاجون إلى غير قليل من هذا الاتجاه . فأخلاقنا تتبني في أصلها النظري على الأديان السماوية حتى اليوم ، وانشغل الكثيرون عن الدين إلى أشياء أخرى وتطورت الحياة تطوراً مدوساً فضاعت الأخلاق النظرية والعملية معا إذ أن الرجل المتدين يأتي كثيراً من السخافات اعتماداً على رضى الله ونوفيقه على تأييده له على طول الخط . وأستطيع أن أقول على شكل ملاحظة بسيطة أن معظم الأفعال البسيطة عن الجسد والوقار والخارجة من نطاق الفضيلة الصحيحة إنما يأتيها قوم متدينون

يضع الأخلاق وأحكامها بما يأتيه من الأفعال كلما تقدم به الزمن ،  
والفضل الاخلاق - كما ينبغي لنا أن نفهمه - فعمل إبداعي لا يراعى  
القيم ، ولا يمتثل أصولاً ، بل يخلق - هو نفسه - الاصول

وبذلك يخلق الفعل الاخلاق من التقليد والاحتذاء ولا يقتصر  
على كونه عملية من عمليات المراجعة ولا تظهر عليه أعراض  
الرتابة ، فالوجوب صفة غريبة كل الغرابة عن المعنى الاخلاقي  
للاحكام العامة. فنحن - أى الناس - متروكون في الارض  
بغير علامات تكشف لنا الطريق أو قواعد تنظم بيننا للمعاملات  
أو إله يبذل لنا من لده الهداية والرشد . هذا هو الاصل الذى  
تحاول الوجودية أن تقيم عليه بنياناً مذهيباً في الاخلاق . وقد  
يكون هذا الاصل داعياً إلى الفوضى أكثر مما هو دافع إلى النظام  
على نحو ما جاء على لسان دستوفيفسكى حينما قال : « إنه إذا لم  
يكن الله موجوداً فسيكون كل شيء مباحاً » ولكن الوجودية  
تنظر إلى هذه النقطة بالذات على أنها موضع الانفصال أو محل  
الاختلاف بين فلسفتهم وفلسفة الآخرين من الفوضويين أو  
الأيثوريين ، فلى الرغم من أن الوجودية تبدأ بدءاً بصعب على  
الكثيرين أن يطرقوه أو أن يحلوا أية مشكلة على أساسه ، فهي  
تجرؤ على القول بأنها قد أتت بشيء . إنها قد اعترفت بالوضع  
الحقيقي أولاً ثم حاولت بعد ذلك أن تنظر في الأمر .

فإذا فلتت ؟ إنها وقد أنكرت من أول الأمر كل معنى في الحياة  
واعترضت على كل دلالة في الوجود وآمنت بالثقافة والمبت من  
رءاء الكون الظاهر ومن خلفه ، أرادت أن تضع الثقة في  
الفوضى وأن توجد الدوافع لدى الأفراد (١) . إن الحياة عيب  
فلنجعل لها معنى ، والأيام ضائعة فلنحقق لها الغاية . ولانكون  
النايات والمغاني مستمدة - كما هو حاصل حتى الآن -  
من عالم غير هذا العالم ، ومن كائنات وهمية ، وإنما

(١) نلاحظ هنا شيئاً هاماً وهو أن الحرية من الناحية الوضعية العملية  
شلتها من الناحية الفلسفية الخاصة قد نبتت من القيد وتولدت عن التقييد .  
فكما أن الحرية هناك كما وضعناها في المقال السابق قد برزت لأول مرة  
نتيجة لعبودية نفسى ما هنا تخرج من العكس المباشر وأعني به الضيعة  
والفقدان الذى وسط مظاهر الوجود . إن اليأس الذى يتمثل في العيب  
والثقافة هو الأصل فى الأمل الذى يتجلى في سررة الله أو في صورة الغاية  
التي تنقدها الأفعال الحرة .

غاية الدين ومؤمنون غاية الإيمان ، أما غير المتدين فقد أهمل  
القواعد الروحية ولم يستطع أن يجد سنداً في حياته العملية فصار  
على نحو من الضيعة والاختلال لا تؤهلانه لميشة طبيعية كريمة .  
فلا بد لنا من محاولة تماشى ظروف المجتمع ومن أخلاق جديدة  
تساير ركب الزمن وتجمعنا نواجه الناسبات المختلفة في غير  
خوف ولا تردد ولا جبن بازاء الأحداث

وقد يخاطر على بالنا أن نسأل الآن عن هذه الرابطة التي  
تجمعنا تفكر في الحرية وفي الأخلاق مما ، فلا يكاد واحد من  
الباحثين يتعرض لموضوع من موضوعات الأخلاق بغير أن  
يتعرض لفكرة الحرية بالدراسات والتحليل ، وهذا الاقتران في  
أذهان العلماء والفلاسفة قريب إذا نظرنا إلى الأخلاق نظرة  
اجتماعية خالصة أو إذا جعلنا رضوان الناس وآراء الجماعات مقياساً  
للافعال المادية ، أو إذا اعتبرنا الأخلاق حسب مقدرة الافراد على  
الانسجام والتأدب والرضوخ ؛ ولكنه معقول غاية المعقولة إذا  
بحثنا في الأخلاق من زاوية خاصة هي التي نحاول أن تحتفظ  
للفردية بتوحيها عند ممارستها للحياة اليومية وعند تناقرها مع  
الآخرين ، فالحرية تدخل ضمن إبحاث الفلاسفة الأخلاقيين عندما  
تراعى أن الأخلاق لا تكون في إخماد الروح الفردية بقدر ما  
تكون في عهدتها ورعايتها وتهيتها كما يلزم بالنسبة إلى الظروف  
المتباينة

فالأخلاق على هذا النحو إنكار للأخلاق ؛ بمعنى أنها  
تعمل على هدم القانون ورفع الضرورة التي تأتي بها نظريات  
الباحثين . الاخلاق التي تأخذ بالحرية على الطريقة التي تريدها  
الوحدانية ليست أخلاقاً وإنما هي معارضة للأخلاق . والحق أن  
الاخلاق نفسها لا تصير أخلاقاً إلا إذا أكدت الحرية ، إذ أن  
الاخلاق شيء آخر غير إطاعة الأوامر وتحقيق الفروض ، وليلها  
تتوفر في الثورة والرفض أكثر مما تتمثل في مظاهر الطاعة  
والرضوخ ، وهذا كله لسبب بسيط وهو أنه لا توجد هناك  
أوامر ولا تتوفر لدينا أصول ولا يمكن أن يصح ما نشعر به .  
عند مواجهة قاعدة ما ، من القناعة والضرورة ، فمألنا الأرضي  
خال تماماً من اللوازم ، وإذا تكشفت بمضى الأيام صفة اللزوم  
في شيء ما فاعلم أنها من ابتكارنا وخلقنا . إن الإنسان هو الذى

حكمه على الماهية الانسانية بأنها معلقة بمرئته وموقوفة على إرادته، وهذا صحيح بالنسبة إلى منطق التفكير الوجودي .

فالوجودية فلسفة تنبع من صميم الذات الانسانية وتصدر عن نزعة فردية واضحة . وتؤمن بالوجودية فضلاً عن ذلك بأن التاريخ لا يحصل من جراء إرادة اجتماعية أو لأن التاريخ ينساق إلى تسمى معين وإنما بسبب رغبة الأفراد في كذا وكذا . إن التاريخ حسب الفهم الوجودي ليس شيئاً موجوداً نمر به ، وليس شريطةاً قائماً نخطو عليه، وإنما هو شيء يوجد في كل لحظة رمزية بإرادة الناس ويتشكل حسب هوى الأفراد بل ويدخل في دائرة الحياة بناء على الأفعال التي يصورها البشر في اللحظة الآنية لا يوجد شيء وإنما يوجد شيء في تلك اللحظة بمد أن تصير حاضرًا ثم يتدم في التو على صورة ماض . إن الانسان المادي ينظر في الحياة وكأنها تمضي بغير ما تقطع ولا توقف، أمام الفيلسوف — الوجودي خصوصاً — فيشمر بمشكاة الصيرورة على أوضح نحو في الدم الذي يتمثله وفي الحاضر الذي يحلقه وفي الوجود الذي يتسلسل به من غير ضرورة تحم عليه الكينونة أو عدم الكينونة . حقاً هناك إمكانيات في الحياة تصير على هيئة معينة إذا جاء المستقبل بحكم النمو الحاصل في الظاهر الأرضية ، ولكن هذا لا يعني أنها موجودة وجوداً كلياً عاماً في الماضي والحاضر والمستقبل وإنما بمعنى أنها تخلق أيضاً بالتوالي الزماني وبالتقدم الوجودي واحدة واحدة إن الوجود يتقدم بنا في الماء الذي لا ترتيب فيه ولا تصميم له بغير خطة ثابتة وبغير علامات أكيدة .

وعلى ذلك ثابت الانسان إذا فعل شيئاً قائماً بفعله وهو يقوم بدور الخالق، فالحرية التي في يده بالضرورة لا تكون مجرد حقيقة للأفعال بل تمد ، على هذا النحو ، منبماً تنبثق عنه كل الدلالات وكل القيم ، وشرطاً أصيلاً لكل تحقق في الوجود كأنقول سيمون دي بوفوان في كتابها عن أخلاق التناقض . ولذلك لاحظنا دائماً إحساس الانسان بالقلق عند مواجهة المستقبل مادام لا يجد تحت يديه ركناً يستند إليه ولا خطة يهتدى بها ولا مثلاً يحتذيه . إن القلق ظاهرة لازمة الحدوث في حياة الانسان بسبب المتاهة المفزعة التي يمضي فيها والمفازة الخفيفة التي يفتقرها بغير ما تجرته سابقة ولا عماد ثابت . حتى القلق نفسه وهملة الاحساسات الأخرى

بمبعتها فصل الانسان بريثا من التقليد خالفاً من الأسانيد . فالانسان وهو يفعل ، يستوحى الحرية ويضع القيمة ويحدد المشروع من غير المشروع وبين اللائق من غير اللائق . أو قل إن الانسان يضع نفسه عن طريق الفعل

ولا يأتي التنكر البادي في أعمالهم لفكرة الوجود أو الضرورة التي تصنف بها القواعد والاحكام الاخلاقية من محاولتهم إبراز فلسفة لا تستند إلى فكرة الله ( الزعوم في رأيهم ) وإنما يصدر عن في انبجاهم هذا عن أصل مذهبي كامل في العاطنين معروفين عند الباحثين وهما : الوجود والماهية (١) فالوجود بالنسبة إلى الانسان — كما تعلم — عبارة عن سلسلة الاحداث التي تطرأ عليه وتشكل تاريخه . والماهية هي جملة الخصائص المميزة له من سواء والطبائع التي تجمله هو هو . ومن الأسس النظرية الاولى في الفلسفة الوجودية أن الوجود سابق على الماهية ، بمعنى أن وجود الاشياء ووجود الانسان ذاته يسبق ظهور الخصائص والصفات التي تستخلصها بشأن هذا الوجود ، فليس هناك فكرة أولية ترسم الاشياء بإرادتها وتمتثل الموجودات لمشيئتها ، وليس هناك تقدير سابق لما يصير واقعاً ، بل كل ما هنالك أن الاشياء تتمثل وأن الحقائق تقع ثم تأخذ صفات معينة وتطبع بطباع خاصة

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الانسان . فهو يوجد أولاً ثم يتحدد بسد ذلك . وعلى هذا فليس هناك طبيعة إنسانية كما يقول سارتر تبساً لعدم وجود إله يعي الانسان . « فالانسان ليس شيئاً آخر — وبالتالي — غير ما يفعله » والخصائص أو الصفات التي تتحدد بها ماهية الانسان في وجوده هي نتيجة لجملة الأفعال التي يأتينا . أو ببساطة أخرى الانسان هو صاحب الأمر في تشكيل ماهيته الخاصة . إذن فرجع الانسان دائماً إلى نفسه في تكوينه وعند إيجاد ما يهيمه وخلق الصفات التي تلحقه . ومن هنا بنى سارتر

(١) كما قلنا عن الحرية الفلسفية إنها تبدأ من التفرقة بين الوجود لذاته والوجود في ذاته ، تقول هنا إن الحرية الاخلاقية أو الحرية العملية تبدأ من عنصرى الوجود والماهية . فهذان العنصران هما بمثابة البندرة التي تبدأ من عندنا تبعنا للانكار على نحو ما نترعت منها .

# موازنة أديبة

بين فصيحتين من عبود الشعر الجاهلي

الاستاذ عبد المنعم خفاجي

١ - أما الأولى فهي مملقة : عمرو بن كلثوم النخعي الشاعر الجاهلي المشهور ( ٥٠٠ - ٦٠٠ م ) . واطلعا .

ألاهي بصحنك فاصبحينا ولا تبق خور الأندرينا  
وأما الثانية فهي مجهرة أمية بن أبي العلت :  
عرفت الدار قد أوت سنيئا لربيب إذ تحمل بها قطينا

٢ - والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لقبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها فهي جذرة حقا أن تسمى ملحمة فهي تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ومنها يوم خزاز

أن يجرى في الأرض فمل غير انساني مهما كان الأمر . والمسئولية تأتي من هذه الناحية ، ناحية الانسانية التي تتصف بها الأفعال والوقائع وماجريات الأمور ، ومن هنا لم يكن هناك محل للاعتذار أو الأسف أو الشكوى بمد إتيان أمر من الأمور

إن فلسفة في الأخلاق على هذا النحو لا تلتقي الباب أمام الرجاء ولا تصدر عن اليأس كما قال الكثيرون عنها ، وإنما على العكس من هذا توجد فسحة للأمل وتضع غير قليل من الايمان والقوة في نفس الانسان كما يفمل وكما يأتي فوله عن عقيدة وحساب ويكتفى أن يعلم الانسان عن نفسه بأنه حر وأنه بهذه الحرية يقرر وجوده الخاص كما يحقق وجود الانسانية جماء ، وأنه يبدأ من لا شيء ليصير شيئاً في النهاية ؛ حتى يدرك خطورة موقفه وحتى يعمل بكل قواه في العالم المضطرب الفاض من أجل الوقوف على بر السلام والوصول الى أرض البراءة والخلاص

عبد الفتاح الديري

والظواهر النفسية التي يبدو فيها الانسان ليست عبارة من صفات ممددة إعاداً سابقاً بالنسبة إليها وإنما هي طريقة من طرائق العمل والحركة داخل نطاق الوجود . فليس هناك العنق بما شئنا ولا أكثر ظهوراً في حياتنا من صفات الحس والتكلم والغضب والحيوية ، ومع ذلك فمذه كلها ليست ضرورة من ضرورات وجودنا بقدر ماهي وسيلة من وسائل اكتشافنا للوجود ونحو من أنحاء انتقالنا من الحاضر إلى الماضي .

فوجودنا إذن يحصل ثم نجمل نحن من هذا الوجود موضوعاً للكلام فنستخلص منه صفات معينة ونلاحظ عليه ملامح بالذات . هذه الصفات وتلك الملامح هي ما نسميه بالماهية . ولما كنا مع كثرة التكرار والترديد للظواهر المتشابهة في حياتنا حسبنا هذه الماهية أزلية تنتقض على طول الزمن في صورة أشكال من هذا الطراز أو ذلك . ولكن الواقع أن هذه الأشياء إنما تحدث في كل مرة لأول مرة وتأتي مع اطراد الأحداث بغير تقدير ممد ولا خطة قبليّة . وبذلك يفتح طابع الجود والترديد في الحياة ويتدخل عنصر الفن بشيائه المتباينة . ولا شك أن الفنان وحده هو الذي يستطيع أن يدرك مدى الرهبة التي تصيب الانسان في تقدمه خلال السحب القائمة من فوقه وهي لا تقف تنذره من حين إلى حين بالاطر الغزر . فالانسان وسط الحياة ليس غريباً عن مثل هذا الموقف عندما يحس في قرارة نفسه بأنه متروك في الوحدة المفرقة بغير سند إلا من اختياره ورأيه وهواه .

ومن هنا تتدخل المسئولية في اعتبار الوجودية . وذلك طبيعي جداً مادام مرجع الانسان في معاشه إلى ذاته وما دام هو نفسه ابن نفسه ووليد أفعاله . ويقول سارتر « عندما نقول عن الانسان انه مسئول من نفسه ، لسنا نمنى أن الانسان مسئول عن شخصيته المحددة ولكننا نمنى أنه مسئول عن كل الناس . » وهذه هي النتيجة الطبيعية لما سبق أن قلناه . فالانسان تبعاً لما يأتيه في وجوده من الأفعال الحرة مسئول عن العالم وعن نفسه طالما كان طريقة من طرق الوجود ، وأعموداً من نماذج الكينونة والمسئولية هنا مأخوذة بمنهاها العادي في الشعور بأنه الفرد يؤلف لحادثة أو موضوع من غير اعتراض عليه ومن غير تمد على حريته . فما يحدث لي - كما يقول سارتر ... يحدث لي عن نفسي ويستحيل